IUGJEPS
Vol 30, No 1, 2022, pp 245-258

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الانسانية

تاريخ الإرسال (1-8-2021)، تاريخ قبول النشر (30-8-2021)

تمثلات بيت المقدس في أدب الرّحلة: مقاربة نقديّة ثقافيّة في ثلاث رحلات من العصر المملوكي

اسم الباحث: د. أماني سليمان داود * 1

1 اسم الجامعة والبلد: قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والعلوم- جامعة البترا-المملكة الأردنية الهاشمية

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: amanisoleiman@hotmail.com

https://doi.org/10.33976/IUGJHR.30.1/2022/9

قدمت فنونُ الأدب المختلفة صورةً واسعةً للقدس أغرت الباحثين بتتبعها؛ لفهم هذه العلاقة الحميمة بين الإنسان وهذا المكان المختلف، وقد ساهم أدب الرحلات في كشف صور دقيقة للقدس من مستويات متعددة فكرية وجغرافية وتاريخية وعلمية واجتماعية وثقافية.

ويجتهد هذا البحث في تجلية مكونات صورة بيت المقدس وتمثّلاتها كما تبدت في أعمال ثلاثة من الرحالة المسلمين، زاروا مدينة القدس وأقاموا فيها بعض الوقت في العصر المملوكي، وسجلوا انطباعاتهم عنها بعد فراغهم من ترحالهم، وهي: الرحلة المغربية للعبدري، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن نباتة.

اخترتُ للبحث المنهج الوصفي التحليلي، وارتأيتُ رسمَ تفاصيل مدينة القدس بالاعتماد على العناصر الأساسية التي اشتركت الرحلات الثلاثة في الاهتمام بها والوقوف عندها، كما أضفتُ محوراً خاصاً بالجانب الفني، لتجلية الميزات الفنية التي تبدت في نصوص الرحّالة، مما يربط الدراسة الأدبية بهاجسها الفني الذي لا ينبغي غضّ النظر عنه مهما تكن الدراسة الموضوعية مهمّة وطاغية.

كلمات مفتاحية: بيت المقدس، أدب الرحلة، العصر المملوكي

Representations of Jerusalem in Travel Literature: A Critical and Cultural Approach to Three Journeys during the Mameluke Era

Different literary genres have introduced a rich portrait of Jerusalem that intrigued researchers to explore the city further; with the aim of understanding the intimate relationship that man has with this unique place. Travel literature, in particular, has contributed to the revelation of this portrait's different layers: intellectual, geographical, historical, scientific, social and cultural.

This paper aims to manifest the various components of the portrait of the city of Jerusalem and its various representations as they appear in the writings of three Muslim travelers: Ibn al-Haj al-Abdari's The Moroccan Journey, Ibn Battuta's Rihla and Ibn Nubata's Rihla. The three travelers visited the city, lived there for a period of time, during the Mameluke era, and recorded their impressions of the city after their return to their homes .

This paper adopts a descriptive analytical approach to introduce the details of the city as they appear in the common features that are introduced and highlighted in all three journeys. Additionally, an artistic approach has been added to manifest the artistic qualities that are present in all three texts. This approach adds to the academic research an aesthetic element that should not be overlooked.

Keywords: Jerusalem, Travel Literature, Mameluke Era

جسم البحث:

التمهيد:

تتفاوت المدن والأماكن في مدى جاذبيتها وسماتها الخاصة، فمنها ما يشتهر وينال حظاً واسعاً من التميز، فتتجه إليه نفوس الناس، ويفوز باهتمام أرواحهم وأقلامهم، ومنها ما يبوء بخمول الشهرة، فيظل مكاناً هامشياً قد لا يذكر إلا في معاجم الأماكن والبلدان.

أما بيت المقدس فمن المُسَلَم به أنه حظي منذ وقت مبكر في التاريخ الإنساني عامة، والإسلامي خاصة بمكانة مقدسة مميزة، وبجملة من السمات الفريدة التي جعلت منه مكاناً جغرافياً وروحياً ينجذب إليه الناس، ويرتحلون إليه، ويكتبون عنه، ولذلك يُعدّ من أكثر المدن حضوراً في الأدب العربي: قديمه وحديثه، شعره ونثره؛ لارتباطه بتحولات أساسية وأحداث شهيرة في التاريخ الإسلامي والعربي، منذ حادثة الإسراء والمعراج التي قرنته مبكراً بالدعوة الإسلامية، وجعلت منه مكاناً يصح طلبه والارتحال إليه، مما تجلى صراحة في الحديث النبوي الشريف: "لا تُشدّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى"( )، فضلاً عن اتخاذه قبلة أولى للمسلمين، فهو المكان الأول الذي اتجهت إليه القلوب، وهي تعلن إيمانها وتقواها في أول خطوات الدعوة، كما ارتحل إليه عمر بن الخطاب الخليفة الثاني ليتسلم مفاتيحه، فاتحاً له من غير قتال.

وهذه الحوادث المبكرة، شكلت موضوعات متكررة غنية، يعود إليها الشعراء والكتاب، يذكرون بها، ويقدمونها بصور وصياغات كثيرة، تختلف من فن إلى فن، ومن كاتب إلى آخر، دون أن يتغير جوهر الفكرة.

ويبدو أن أدب الرحلات شكل من أهم الأشكال التي تعرضت للقدس بجلاء، وقد قدمت رحلة ناصر خسرو (394 هـ -481هـ) تفصيلات دقيقة لمحاريب القدس وأبوابها وقببها ومزروعاتها وجغرافيتها ومياهها ومستشفياتها وأطبائها ومسجد الجمعة والأروقة وأرض المسجد ومسجد قبة الصخرة والصوامع والمقامات وغيرها( ).

كما برزت في هذا الباب رحلة ابن العربي (468 هـ - 543 هـ)، بما فيها من عناية بتصوير الجوانب الفكرية والحياة الثقافية والعمرانية في بيت المقدس قبيل الاحتلال الصليبي، حيث برز كواحد من أهم المراكز الفكرية في العالم الإسلامي( ). فضلا عن رحلة ابن جبير (540/539هـ - 614هـ) التي ترك صاحبها ملاحظاته الدقيقة ومشاهداته اليومية لبيت المقدس( ).

وللقدس – كما مرّ – صورة واسعة في فنون الأدب المختلفة، وقد أغرت الباحثين بتتبعها لفهم هذه العلاقة الحميمة بين المكان والإنسان، والكشف عن بيت المقدس بوصفه مكاناً مختلفاً يمتلك طاقة محركة للأدباء والكتاب على اختلاف اهتماماتهم وأصنافهم.
وحسب هذا البحث أن يعنى بوجه واحد من وجوه حضوره، وهو ما يبدو في (فن الرحلة في العصر المملوكي)، مما يحدد موضوعنا بثلاثة عناصر:

أولا: المكان (بيت المقدس).

ثانيا: الزمان (العصر المملوكي).

ثالثا: الفن الأدبي (الرحلة).

وسوف يركز البحث على مكونات صورة القدس كما تبدت في أعمال ثلاثة من الرحالة المسلمين، ممّن زاروا القدس وأقاموا فيها بعض الوقت في العصر المملوكي، وسجّلوا انطباعاتهم عنها بعد فراغهم من ترحالهم، وهو ما يتبدّى في الرحلات التالية:

1. **الرحلة المغربية، لأبي عبد الله محمد العبدري، من أبناء القرن السابع، وقد زار القدس سنة 690هـ .**
2. **رحلة ابن بطوطة، أبو عبد الله الطنجي (703 هـ – 779 هـ)، وقد زار القدس سنة 726هـ.**
3. **رحلة ابن نباتة، جمال الدين المصري (686 هـ –768هـ)، وقد زار القدس سنة 735هـ**

ولغايات منهجية قسمت البحث إلى عناوين فرعية تعين على الاقتراب من تفاصيل مدينة القدس، اعتماداً على العناصر الأساسية التي اشتركت الرحلات الثلاثة في الاهتمام بها والوقوف عندها، كما أضفت محوراً خاصاً بالجانب الفني، الذي يُمْكِن أن يساعد الباحث في تبين الميزات الفنية التي تبدت في نصوص الرحالة، مما يربط الدراسة الأدبية بهاجسها الفني الذي لا ينبغي غضّ النظر عنه مهما تكن الدراسة الموضوعية مهمة وطاغية.

وقد استوى البحث في العناوين التالية:

- **المنزلة الدينية**
- **المسجد الأقصى**
- **قبة الصخرة**
- **التعليم والثقافة**
- **مشاهد وصور**
- **ملاحظات فنية**

المنزلة الدينية:

تبوّأت مدينة بيت المقدس في قلوب المسلمين مكانة عالية، على مدار القرون، فثمة تعلق خاص بها وشوق دائم يدفع إلى زيارتها وأخذ زمام الرحلة إليها، فلها منزلة دينية اكتسبتها من حضورها في أحداث بارزة في الدولة الإسلامية، مما جعلها مَحَطَّ التطلع والنظر من كل حدْب وصوْب.

وقد استقطبت القدس الرحالة من المشرق والمغرب على اختلاف مشاربهم وأهوائهم، وكانت المنزلة الدينية هي المنطلق والمسوّغ لتلك الرحلات، ومصداق ذلك ما يقوله الرحالة عنها، وهم يسوّغون ارتحالهم إليها وإقامتهم فيها، مما يجعل الرحلة إلى القدس مختلفة عن أية رحلة أخرى، وهذا ما يتبدى في قول العبدري( ) عن بيت المقدس "إنه مسجد الأنبياء وقبلتنا قديماً، ومطلع الأولياء يطلعهم عظيماً

فعظيماً. أحد المساجد التي إليها تعمل المطي. وتضاعف بها الحسنات لكل برّ تقيّ. مصعد نبينا عليه السلام. إلى مستوى يسمع فيها صرير الأقلام. ومعراجه حين عسعس الظلام..."( ). فيستحضر فكرة الارتحال إليها من الحديث النبوي الشريف لا تُشدُّ الرِّحال...

ويبدو هذا المنطلق متكرراً عند ابن بطوطة( ) الذي يشير إلى الأهمية الدينية بعبارات مماثلة، فيقول: "ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرّفه الله. ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، ومعرجه إلى السماء"( ).

أما ابن نباتة( ) فيذكرها بقوله: "... إلى أن قدمنا( ) القدس الشريف نحن والغمام، وسبقتنا إليه طرّة الصبح تحت أذيال الظلام وخفّ جناح السوق والشوق حين دنت الخيام من الخيام، وألقينا بباب حرمه عصا السفر، وألقت هناك رحالها ركائب المطر، وزرنا باب الرحمة من الأرض، وزارنا باب الرحمة من السماء، وصرنا من الصالحين عند زيارة الأقصى، فمشينا على الماء، وحمدنا الأوطان والأوطار، واستمرت السحب حتى عادت الصخرة كحجر موسى تنفجر منها الأنهار، وأقمنا في بيوت أذن الله أن يرفع شأنها ويسبح فيها بالغدوّ والآصال سكانها"( ).

فكأن زيارتهم هذه منحتهم نوعاً من التخصيص والتميز كالأنبياء أو الأولياء الصالحين، وكأن بوصولهم باب الرحمة في القدس عمّتهم رحمة السماء، وصاروا أصحاب كرامات صوفية (فمشينا على الماء).

المسجد الأقصى:

تتمثل صورة بيت المقدس عند الرحالة من خلال وصفهم التفصيلي للمسجد الأقصى( ) (الحرم القدسي)، وهو وصف يضعنا أمام سمات العمارة الإسلامية بشكل عام، وجماليات المسجد بشكل خاص.

ويأتي هذا الوصف من معجب مندهش إذ يقول: "وأما المسجد المقدس فهو من المساجد الرائقة العجيبة المنشرحة الفسيحة، وهو متسع جداً طولاً وعرضاً"( )، ويذكر بعض الإحصائيات والأبعاد الهندسية التي يشغلها هذا المسجد نقلاً عن أبي عبيد البكري( )، ويشير إلى عدد أبواب المسجد نقلاً عن بعض الناس (وذكر بعض الناس...).

إذن فهو يسميه المسجد المقدس، ويحاول إغناء وصفه بإضفاء المعلومات المنقولة من غيره ويسهب في توصيفه مشيراً إلى أجزائه المختلفة كالمبنى الرئيس (المسجد المسقوف)، ومهد عيسى وغيرهما، مما ينمّ عن دقة وحسّ جغرافي، فضلاً عن عمق الانشغال بهذا المكان، فترى في هذا الوصف عناية المسلمين بعمارة المسجد الأقصى وجمالياته، إذ يقول: "والمسجد كله فضاء غير مسقف، إلا الناحية الغربية، فهنالك مسجد مسقف في نهاية الإحكام وإتقان العمل، وفيه تزويق كثير، وتذهيب رائع مليح، وهذا المسقف في الركن الغربي من ناحية الجنوب، وفي ناحية الشرق مواضع مسقفة مع طول الحائط وعلى الأبواب، وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يقصد للركوع فيه والتبرك به، وهو هزمة في الأرض مبيضة، وهذا الحائط الشرقي هو سور المدينة من ناحية الشرق، وهو على طرف الوادي المذكور أولا وعلى جهة منه منطقة بعيدة المهوى جداً"( ). يتمتع المسجد إذن بسخاء التزويق والزخرفة، وهو ما ينسجم مع رفعة المكان وجلاله.

وابن بطوطة متأثر بالعبدري في التسمية وفي التوصيف إذ يسميه المسجد المقدس، ويعده من المساجد العجيبة الرائقة، الفائقة الحسن( )، ويذكر أنه مما يقال عنه إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه...( ). ويبين أطواله المختلفة مشيراً إلى كثرة أبوابه في جهاته الثلاث عدا الجهة القبلية، ويشيد بفخامته محدداً ما سقف منه، وما لم يسقف فيقول: "والفضاء كله فضاء غير مسقف( )، إلا المسجد الأقصى فهو مسقف في النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموّه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع سواه مسقفة"( ).

ويؤكد هذا التوصيف ما يتمتع به المسجد الأقصى من الجمال والإحكام والإتقان.

أما ابن نباتة فيصفه بأسلوب بياني، يفيد من أسلوب الشعر في التصوير والمبالغة، يقول: "ونظرنا آثاراً قديمة تذهل عيون النظارة، وآثاراً متجددة في الدولة القاهرة تقصر عنها العبارة، ومحاسن يقف في طريق الزيارة متأملها، ووقفة في الطريق يصف الزيارة، فمنها ما هو مخصوص بالحرم الشريف، نستلم كالحجاج أركانه. ونقلب وجوهنا في سماء سقف يكاد يمطر علينا لجينه وعقبانه، ونشاهد رخاماً بلغ في الحسن والمحل الأقصى. وتمّت به في بهجة المكان زيادة تخالف قول النحاة: إن في الترخيم نقصاً"( ). فابن نباتة يشير إلى العجز عن التعبير أمام هذا البهاء الذي يقف الزائر حياله مجيلاً البصر، متأملاً تفاصيل الزخرفة وحسن الرخام، ويعد زائر الأقصى كزائر مكة مستحضراً أحد طقوس الحج وهو الاستلام.

ويبدو المسجد الأقصى – بكل ما فيه من رونق وفخامة – تحدياً تعبيرياً أمام الرحالة وهم يحاولون نقل جماليات الصورة إلى غيرهم.

قبة الصخرة:

تشكل قبة الصخرة مثالاً آخر على العناية بالعمارة الإسلامية وتميزها، ودقتها وإتقانها، فيرى العبدري أن قبة الصخرة تتماز في عجبها وغرابتها عن مباني الأرض، بل يصورها عروساً جُلِيت، ويسهب في إطراء مفاتنها، فيقول: "وفي وسط فضاء المسجد قبة الصخرة، وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض، وأتقنها، وأغربها، قد نالت من كل حسن بديع أوفر حصة، وتلت من الإتقان ظاهره ونصّه، وتجلّت في جمالها الرائع كعروس حسنة جليت على منصة، قامت مشرفة متبرّجة على يَفاع، تصرّح وتلوح بالإعراب والإبداع، وتفصح بما يشرح عن فضيلة الصناع..."( ).

يعرج العبدري بعد ذلك على وصف الشكل الثماني للقبة الواقعة على مرتفع يصل المرء إليه من طريق الدرج الرخامي، يقول: "صفتها أنها قبة مثمّنة على نَشَز في وسط المسجد، ويطلع إليها في درج من رخام وقد أحاط بها، ولها أربعة أبواب، والدائر مفروش بالرخام المحكم الصنعة، وداخلها كذلك"( ).

ويبدو أن الدهشة جعلت العبدري يستنفد طاقته البيانية واللغوية، ليصل إلى مستوى المكان، يقول: "وفي ظاهرها وباطنها من أنواع التزويق ما يقصر عنه الوصف، وأما الذهب فما رأيته مبتذلاً في شيء كابتذاله في هذه القبة حتى لقد غشي به أكثرها ظاهراً وباطناً، فهي تتلألأ ساطعة الأنوار، كلمعان برق أو اشتعال نار، وقد ذهب الأعلى من ظاهرها إلى حدّ التسقيف، وألبس سقفها لين الرصاص المحكم الإلصاق، حتى صار جسداً واحداً، وأما باطنها فيكلّ عن وصفه اللّسان..."( ).

ولا يتوقف العبدري عند هذا المقدار من وصف ما ظهر للعيان من القبة، إذ يعمد الدخول إلى وسطها لتبين الصخرة وما تستر تحتها، يقول: "وفي القبة الصخرة التي جاء ذكرها في الآثار، وأنه عليه السلام عرج عنها إلى السماء، وهي صخرة صماء علوّها أقل من القامة، وتحتها شبه مغارة على مقدار بيت صغير يعلو قدر القامة وينزل إليه في درج وقد هُيئ له محراب، وسُوِي، وأتقن، وعلى الصخرة شباكان محكمان يغلقان عليها، أحدهما وهو الخارج من الخشب والآخر من حديد أصفر محكم العمل بديع الصنعة"( )، فيوثّق بذلك تفصيلات دقيقة عن محتوى القبة بأحجامه وأشكاله المختلفة.

ومما يتميز به العبدري في رحلته ميله إلى الدقة العلمية، مما يتمثل في توقفه عن نقل الأخبار المختلطة بالأسطورة، فلا يقبل الأشياء على علّاتها، يتمثل ذلك في قوله: "وفي القبة صورة درقة( ) كبيرة من حديد معلقة هنالك وأظنها كانت مرآة ولكنها قد صدئت وزال صقالها، والعوام تقول إنها درقة حمزة( ) واشتهر عندهم هذا الزّور حتى صار في حدّ المقطوع به"( )، فهو صاحب موقف علمي – كما يبدو –.

يأتي جلّ وصف ابن بطوطة للقبة متأثراً بالعبدري شكلاً ومضموناً( )، فعلى سبيل المثال يستبدل ابن بطوطة بكلمة (التزويق) الواردة عند العبدري في وصف القبة كلمة (الزواقة)، كما يستبدل بعبارة (ما يقصر عنه الوصف) عبارة (ما يعجز الواصف) وهكذا( ).

أما ابن نباتة فيشير إلى تأثير الصخرة العاطفي على القلوب التي أبصرتها، فقد ألانتْ القلوبَ وأدمعتْ العيون، يقول: "ومكثنا في البيوت إلى أن صحا الأفق من مدامة غمامه، وحسر عن وجهه للأبصار فضل لثامه. وقمنا لبقية المشاهد قاصدين، ولتلك المباني المعظمة شاهدين ومشاهدين، فعاودنا الصخرة بقلوب قد لانت. ونثرنا على مواطئ القدم دموعاً عزّت بلمسها، ولا نقول هانت"( ). وهذا يؤشر أن ابن نباته ينقل ما يحسّ به تجاه المكان، وما يتركه في وجدانه، أكثر من نقله الصورة الخارجية أو المشاهدة.

التعليم والثقافة:

جاء في رحلة العبدري أن بيت المقدس كان يخلو ممن هو أهل لأخذ العلم عنه عدا شيخ واحد يدعى (محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة)– وهو قاضي البلد– وله مَجْلِسا علمٍ حضرهما العبدري ولم يخرج منهما بطائل – كما يقول – فقد رأى بيت المقدس رغم شرفه واشتهاره يخلو من العلماء، يقول: "ولم أر في هذا البلد – مع شرفه واشتهاره – مَن هو أهل لأخذ العلم عنه، ولا معنياً به، إلا شيخاً هو قاضي البلد يلقب بدر الدين وهو محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة، له مجلس علم يدرس فيه أول النهار في المسجد عند المحراب، ومجلس سماع يروي فيه بعد صلاة العصر يوم الجمعة في قبة الصخرة. وقد حضرتُ كلا المجلسين فلم أخرج منهما بطائل، وكلمته في أشياء تخبّط فيها وتعسّف، فلم أجد من نفسي إذعاناً للأخذ عنه"( ).

وقد كان اهتمام العبدري الرئيس قد اتجه إلى الحديث عن العلماء الذين التقى بهم، والذين تتلمذ عليهم أحياناً ردحاً من الزمن في الأماكن التي يقيمون بها( ).

فهو قد اختلف إلى بلاد عديدة، وخبر ما بها من علم ومعرفة، لذا يقيم نوعاً من الموازنة بين ما رآه في تلك البلاد وما رآه في بيت المقدس، فيقول واصفاً القاضي بدر الدين بن جماعة: "... على قلة همّته في الرواية، إذ وجدته يروي نظائره من أهل مصر، ومن لا يزيد عليه في السن إلا يسيراً، إلى أخلاق وصف لي بها تريب الأريب، وتنفر النسيب والغريب، فله تواليف منها اختصار كتاب

حذا فيه حذو السهيلي في كتاب الأعلام بما أبهم في القرآن، ومنها كتاب المسالك في علم المناسك، لم يأت فيها ببديع، ولا شق الظلماء من بيانه صنيع"( )، فهو يأخذ على ابن جماعة روايته عن نظائره من أهل مصر، وعمّن لا يكبره بالسنّ كثيراً، فضلاً عن قلة أمانته العلمية وضعف إبداعه، فيرى أن بيت المقدس آنذاك( ) كان يعيش اضمحلالاً علمياً، ولعل قصر المدة التي مكثها في القدس لم تكن كافية للتعرف على الوضع العلمي فيها والتوثق من الحكم، ولعله يتطلع أن يكون مستوى التعليم والثقافة في هذا المكان يوازي مكانته المميزة.

ومع ذلك يشير العبدري إلى وجود الربط والأرزاق الجارية للمنقطعين وأبناء السبيل، وبها رباطان متقاربان في غاية الإتقان، بنى أحدهما الملك المنصور، وبنى الآخر الأمير علاء الدين الأعمى، وفي كليهما رزق جار للمنقطعين وأبناء السبيل( ). وهذه صورة إيجابية من الثقافة الاجتماعية.

أما ابن بطوطة فقد أوضح أن حركة التعليم والثقافة في بيت المقدس كانت قد نشطت في ذلك الوقت( )، وكثر العلماء فيها، فيذكر منهم القاضي العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزّي، من أهل غزة وكبرائها، ومنهم الخطيب الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي، وكذلك المحدث المفتي شهاب الدين الطبري، ومنهم أيضا مدرس المالكية وشيخ الخانقاه أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس، فضلاً عن الشيخ الزاهد أبي علي حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين، وثمة منهم الشيخان الصالحان العابدان كمال الدين المراغي وأبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي( )، وقد صحبه ابن بطوطة ولبس منه خرقة التصوف، إذن كانت مدينة بيت المقدس آنذاك تحفل بالعلم والعلماء، واجتمع فيها القاضي العالم، والخطيب الصالح الفاضل، والمحدث، والمدرس، والشيخ، والشيخ الزاهد والمتصوف. وكانت تستقطب علماء المسلمين من أنحاء بلاد الإسلام.

تقترب الصورة التي يقدمها ابن نباتة( ) عن العلم والعلماء في بيت المقدس من تلك التي قدمها ابن بطوطة، فينقل صورة لدور العلم وأماكنه، كالمدارس ودور الحديث والخانقاه، يقول مشيراً إلى المدرسة الأمينية( ): "ومن المباني المذكورة ما هو خصيص بمولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره، وأبقاه سيفاً يقف كل ذي قدر عند حده فلا يجاوز مقداره، من مدرسة علم يدرس ولا يدرس معهده، ودار حديث يروى فيروي الأسماع الظامئة مورده، وخانقاه تضيء عليها أنوار البركات الكوامل"( )، إذن عاد الاهتمام في هذا العهد من العصر المملوكي بالعلم والتعليم، وقد استمرت المدرسة الأمينية قائمة بدورها في الحياة الفكرية في بيت المقدس حتى أواخر العصر المملوكي، بل استمرت تقوم به حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري( ).

ثم يقدم ابن نباتة صورة ممتلئة بالحركة والحيوية عن الجانب الاجتماعي، الذي لا ينفصل عن الجانب الثقافي، بل يُعدّ انعكاساً له، فهناك رباط ومكتب يعدان ملجأ للأرامل واليتامى، كما كثر تقديم الصدقات سراً وجهراً، فكل من يحتاج يجد حاجته من مال وكساء، فلا يرد السائل خائباً بل يقابل ببحر من العطاء والخير، لذا امتلأ بيت المقدس بالفقراء رجالاً ونساء وأطفالاً من كل حدب وصوب، يقول ابن نباته واصفاً هذا المشهد، متمماً ما بدأه من حديث عن دور العلم: ".. ورباط ومكتب هما كما قيل: ثمال اليتامى، عصمة للأرامل.

وقلت فيهما:

بَنيتُ رباطاً للنساءِ ومكتباً يُديرُ على الأيتامِ سحبَ الفَواضلِ

فللهِ مِنْ هذا وذاكَ كما ترى ثمال اليتامى عصمةٌ للأرامـــــلِ

فجنينا من تلك المحاسن بساتين دانية القطوف، ولحظنا من الظلال السيفية جنة نشأت، وكذلك الجنة تحت ظلال السيوف، وشرعت صدقات السر والجهر، وقوبل السؤال ببحر لا يسمع عنده نهر، وغصّ بفقرائهم المكان والطريق، وجاءوا رجالاً ونساء {وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍّ عميق} سورة الحج/الآية 27؛ فوضع في مواضعه النوال، وقدرت الكساوى حتى على المستورين والأطفال. هذا وكم ثياب صوف أعرض إشراقها عن مقال اللاحين، واتخذ الفقراء والأغنياء من أصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وجاءهم الدراهم بعد التفاصيل بالجمل، وقال جودها لحاتم: هذه التي لا ناقة لك فيها ولا جمل.

ومما قلتُ في ذلك:

للهِ كَمْ حال امرئٍ مُقْترٍ قضيت في القدسِ بتنفيسهِ

ودرهمٌ وَلّى ولكنَـــــهُ قد أخذَ الأجرَ على كِيسهِ"( ).

ولعل الأوقاف تشكل مورداً مالياً محركاً للحياة، كما يتبدّى من هذه الصورة أن نوعاً من الهدوء والاستقرار، وشيئاً من الغنى والترف أصاب بيت المقدس، مما ينعكس إيجابياً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما يؤكد أن بيت المقدس نال في العصر المملوكي اهتماماً كبيراً من سلاطين المماليك، الذين شجعوا العلم وأهله واعتنوا بالأقصى والصخرة، وأنشأوا المدارس ودور القرآن والحديث والخوانق والزوايا والرباطات( ).

وحول تلاوة القرآن، ومجالس التفاسير، والرقائق التي كانت الأوقاف الصاحبية( ) تنفق عليها، والشروع في بناء رواق، وأرزاق شيخ المدرسة والفقراء من الصوفية، يقول: "ثم تليت الختمات التي شرف الله تعالى ذكرها، ومواعيد التفاسير والرقائق التي أجرت الأوقاف الصاحبية بباب الحرم الشريف، وأخذ راقم الرخام في التوشيع والتفويف، فيا لها ألواحاً كتب فيها من الحسن كل شيء، واطرد ماء رونقها فكأن العين منها في ماء وفيء، ويا له رواقاً شاق وصفه وراق، ورفع محله، فقال لسان المتصوف: حبذا رفاعي الرواق. ثم رتّب للشيخ والفقراء ما يحتاجون إليه من كل نوع فريد، وأصبح كل أحد وهو للنزول عند ذلك الشيخ مريد"( ). وهذا يوضح الصورة التي كان عليها بيت المقدس من النشاط والازدهار العلمي والثقافي.

مشاهد وصور:

البلد

ويصف الرحالة البلد/ بيت المقدس: مساحته وقوة بنائه وموقعه، فهو عند العبدري مدينة كبيرة منيعة محكمة كلها من صخر منحوت، على نشز غليظ مقطوع بجهات الأودية( ). ويتكرر هذا الوصف عند ابن بطوطة فهو بلدة كبيرة ومبنية بالصخر المنحوت( ).

السّور

ويذكر العبدري أن القدس سورها مهدوم، هدمه الملك الظاهر خوفاً من استيلاء الروم عليها وامتناعهم بها( ). وابن بطوطة يشير كذلك إلى أن الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها. ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفاً أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها( )، فتتكرر المعلومة عند ابن بطوطة( ).

المياه

يذكر العبدري أن الخراب في بيت المقدس فاشٍ، وليس له نهر ولا بستان، وحواليه تلال مشرفة عليها( )، فهو يعج بالخراب ويعاني من قلة الماء والخضرة، فما تُراه الخراب المشار إليه؟!. يحاول العبدري تقديم صورة موضوعية لبيت المقدس، تصف المكان بأدق تفصيلاته، لعله يسعى إلى قراءة المكان بعين محايدة تبصر الواقع ولا تجمله رغم ما يعنيه التخريب الذي تعرّض له( )، فضلاً عن الاحتلال الصليبي المتكرر له في القرن ذاته.

يشير ابن بطوطة كذلك إلى قلة الماء فيه حيث لم يكن بهذه المدينة نهر( )، إلا أن الحل كان ماثلاً فقد جلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكيز أمير دمشق( ).

أما ابن نباتة، فيقول: "فأما المياه التي تجري في الحرم على رأسها وتطوف على مواضع المنافع بنفسها، فتلك نعمة مقيمة يكافئ الله عنها في دار المقامة، وحسنة في المعنى والصورة جارية إلى يوم القيامة"( ). فيبين أن المياه كانت تجلب إلى بيت المقدس، وكان ثمة من قام على تنظيم وصولها، ممن يستحق أن تكون له صدقة جارية إلى يوم القيامة، يجمع الرحالة إذن أنه ليس ثمة مصدر طبيعي للمياه في بيت المقدس( ).

الكنيسة

يصف العبدري كنيسة القيامة، كمعلم من المعالم التي تشتملها بيت المقدس يقول: "وبها كنيسة معظمة عند النصارى، يحجونها في كل عام، وهي التي يزعمون أن فيها قبر عيسى عليه السلام، وعلى كل من يحجها منهم ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الإهانة يتحملها راغماً"( ). ولعل ضروب الإهانة التي يشير إليها العبدري ما هي إلا صدى العلاقة التي اضطربت بين المسلمين والنصارى إثر الحروب الصليبية التي كان الصراع العقائدي من أسبابها الرئيسة، فكأن شيئا من ردّ الفعل أنتج هذا النوع من العلاقة.

وذات الصورة من الضرائب وضروب الإهانة ترد عند ابن بطوطة( )، بينما لا يذكرها ابن نباتة.

ملاحظات فنية:

لقد أدهشت مدينة القدس/ بيت المقدس/ الرحّالة، وأثارت إعجابهم، ومعنى هذا أنها استثارت قدراتهم الكتابية، واستنهضت طاقاتهم الفنية، وكانت مناسبة حسنة للقول، فحاول كل منهم الإبداع في الوصف والتسابق في اللغة والبيان، علّه يتناسب مع منزلة الموصوف الجمالية ومكانته الروحية، ولعل الإكثار من التأنق اللغوي يقابل كثرة الزخرفة والتزويق العمراني في بيت المقدس.

ورغم ذلك فقد خامر الرحالةَ شعورٌ بالعجز، يصرح به العبدري أثناء توصيفه للقبة فيقول: "... وأما باطنها، فيكلّ عن وصفه اللسان ويحار في حسنه إنسان الإنسان، تبهر الناطق أشعته الباهرة، وتستوقف الخاطر محاسنه الظاهرة، أسكرت العقول فصارت لها عقالاً، وكلت الألسن فما وجدت مقالاً، فاقت حسناً وكمالاً، فقطعت لسان من يغمز، وراقت حلى وأوصافاً فأسرت فؤاد المتحرز..."( ).

ويلاحظ الدارس بروز عدد من السمات الفنية والأدبية في هذه الرحلات أهمها:

أولا: المحسنات البديعية

ثانيا: توظيف الموروث الديني والأدبي

ثالثا: التصوير الأدبي

أولا: المحسنات البديعية:

وتظهر المحسنات البديعية في الصور التالية:

أ. السجع:

شاع السجع في الرحلات الثلاث، وجاء موفقاً في التوظيف، فلم يكن زائداً على المعنى ولا مبالغاً به، ومنه مما جاء عند العبدري (... مسجد الأنبياء وقبلتنا قديماً. ومطلع الأولياء يطلعهم عظيماً فعظيماً، أحد المساجد التي إليها تعمل المطي، وتضاعف بها الحسنات لكل برّ تقيّ...)، ومنه مما جاء عند ابن نباتة (إلى أن قدمنا القدس الشريف نحن والغمام، وسبقتنا إليه طرة الصبح تحت أذيال الظلام...).

ب. التقسيم وتوازن الجمل:

امتازت الجمل في أغلبها بالقصر وبتساوي الأطوال، مما يوفر ضربات إيقاعية متقاربة الأزمان، ومما جاء منه عند العبدري (.. قد نالت من كل حسن بديع أوفر حصة، وتلت من الإتقان ظاهره ونصه...)، ومما جاء منه عند ابن نباتة (... وزرنا باب الرحمة من الأرض، وزارنا باب الرحمة من السماء..).

ج. التجانس:

كما توافرت الرحلات على نوع من التجانس الصوتي الذي يوفر شكلاً من الإيقاع الموسيقى، نتيجة تكرار الحروف نفسها، ومما عند العبدري (... فأما الذهب فما رأيته مبتذلاً كابتذاله في هذه القبة.. ويحار في حسنه إنسان الإنسان، وتبهر الناطق أشعّته الباهرة.. أسكرت العقول فصارت لها عقالاً..)، فبين كل كلمتين من الكلمات التالية:

مبتذلاً/ كابتذاله

إنسان/ الإنسان

تبهر/ الباهرة

العقول/ عقالاً

مشترك من الأصوات (الحروف) تضمن نوعاً من الإيقاعية في الجمل.

ومثل هذا التجانس نجده عند ابن نباتة في قوله (وقمنا لبقية المشاهد قاصدين، ولتلك المباني المعظمة شاهدين ومشاهدين..)، فبين الكلمات الثلاث: المشاهد/ شاهدين/ مشاهدين، مشترك من الأصوات الناتجة عن تكرار الحروف نفسها.

ثانيا: توظيف الموروث الديني والأدبي:

ويتمثل فيما يلي:

- الاقتباس من القرآن الكريم؛ كما ورد عند ابن نباتة، في قوله (... وغص بفقرائهم المكان والطريق، وجاءوا رجالاً ونساء {وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق} سورة الحج/ الآية 27...)

- الاقتباس من الحديث النبوي الشريف بالنص، أو نثره في ثنايا الرحلة؛ فقد ورد عند ابن نباتة اقتباساً في قوله (..ولحظنا من الظلال السيفية جنة نشأت وكذلك "...الجنة تحت ظلال السيوف" رواه عبد الله بن أبي أوفى في صحيح البخاري، كما ورد الحديث النبوي لا تشد الرحال... منثوراً عند العبدري وابن بطوطة في ذكرهم لمنزلة بيت المقدس الدينية.

- حضور قصص الأنبياء والكرامات الصوفية والأمثال العربية: كما فعل ابن نباتة في استحضاره قصة ضرب موسى عليه السلام الحجر بعصا ليتفجر الماء في قوله (واستمرت السحب حتى عادت الصخرة كحجر موسى تتفجر منها الأنهار)، واستحضاره الكرامات الصوفية في قوله (ومشينا على الماء)، واستحضاره الأمثال العربية (وقال جودها لحاتم: هذه التي لا ناقة لك فيها ولا جمل).

- حضور الشعر: كالأبيات التي أوردها ابن نباتة من شعره في وصف الوضع الثقافي والتعليمي في بيت المقدس، وكذلك في قول العبدري في توصيفه للقبة:

شرك العقولِ ونزّهت ما مثلها للناظرين وعقله المستوف( )

ولعل حضور الشعر في الرحلة يتأتى من كونه مرتبطاً بالعاطفة، والعاطفة يستثيرها الجمال، وفيما يتعلق ببيت المقدس، فإن العاطفة ستكون مضاعفة، لخصوصية هذا المكان الجمالية والروحية، فمن الطبيعي أن يتم استدعاء الشعر في الرحلة.

ثالثا: التصوير الأدبي:

بدا الأسلوب الأدبي واضحاً في الرحلات الثلاثة وخصوصاً عند ابن نباتة؛ فقد تجلت في رحلة ابن نباتة (الشاعر) تأثيراته الشعرية من خلال التصوير والمجاز والتشخيص، فقد رسم لوحة متحركة بدا فيها القادمون إلى القدس تحرسهم الغمام وتظللهم. وكان سبقهم

ضياء الصباح الباكر إليها. وما أن وصلوا حتى أخذت الغيوم تسكب خيراتها من الغيث فكأنه بوصولهم باب الرحمة الأرضي، فتح عليهم باب الرحمة السماوي، فعدوا من الصالحين بهذه الزيارة، وذهب عنهم سيئاتهم فخفوا حتى مشوا على الماء.

وقد طغى العنصر الأدبي عند ابن نباتة على وصف الأمكنة، فجاء وصفه من منظور شعري، يصف الأشياء وفق الإحساس بها لا كما هي، لذا تصل ممزوجة بالوجدان والتأثيرات العاطفية، فيقرأ المرء إحساس الكاتب فيها، أكثر مما يقرأ المكان، فيمثل رحّالة أديباً جعل من رحلته عملاً جماليّاً ممتعاً ومفيداً في آن.

خاتمة

درس هذا البحث صورة بيت المقدس في الرحلة في العصر المملوكي، فتناول بالتحليل ثلاثة نماذج من الرحلة، هي: رحلة العبدري، ورحلة ابن نباتة، ورحلة ابن بطوطة، مبيّناً أهمية الرحلة باعتبارها واحدة من الآثار الأدبية التي يُستأنس بها في رسم ملامح هذه المدينة بتنويعاتها المختلفة، العمرانية والثقافية والاجتماعية وغيرها.

وقدم الرحالة بعض هذا أو جلّه عبر توصيف قائم على المشاهدة العينية، لا النقل أو السماع، سواء اعتمد هذا التوصيف على التدوين المباشر، أو على الذاكرة بعد الفراغ من الرحلة، فاتضحت منزلة بيت المقدس الدينية، وصورة المسجد الأقصى وقبة الصخرة والتعليم والثقافة، فضلاً عن بعض المشاهد والصور فيها، عبر إضاءة النصوص من داخلها.

ومن أبرز نتائج البحث:

أولا : لقد لمس البحث التباين والتفاضل في صورة بيت المقدس بين رحلة وأخرى، إذ انطلق كل رحالة في وصفه من زاوية اهتماماته وطبائعه وأمزجته وميوله، فثمة من ركز على الجانب الثقافي والعلمي في القدس، وثمة من اهتم بالجانب الشكلي والجمالي للمدينة.

ثانيا: إنّ تباين الرحالة في توصيفهم للمكان الواحد، منهم من يراه خراباً ومنهم من يراه عامراً، يغلب أن يكون نِتاج اختلاف الحقبة الزمنية الموصوفة، فثمة من جاء في فترات الهدوء، وثمة من قدمها في فترات الفوضى وعدم الاستقرار السياسي.

ثالثا: الرحّالة الثلاثة في سائر الصور التي رسموها، وثقوا جوانب مهمة من التاريخ الاجتماعي والثقافي والعمراني لهذه المدينة المقدسة. كما تبين في تضاعيف البحث، مما يشير إلى أهمية دراسة فن الرحلة في سياق الاهتمام ببيت المقدس.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

1. البشاري، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي. (1991). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ط3، القاهرة: مكتبة مدبولي.
2. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم (ت779هـ). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار/ رحلة ابن بطوطة. بيروت: دار إحياء العلوم.
3. ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت 614هـ). رحلة ابن جبير. بيروت: دار مكتبة الهلال.
4. الحموي، أبو بكر بن محمد بن حجة. (2005). ثمرات الأوراق. تحقيق: أبو الفضل إبراهيم. ط1. المكتبة العصرية.
5. حميدة، عبد الرحمن حميدة. (1969). من أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم. دمشق.
6. خسرو علوي، ناصر. (1983). سفر نامة. تحقيق: د. يحيى الخشاب. ط3. بيروت: دار الكتاب الجديد.
7. سترانج، لي. (1970). فلسطين في العهد الإسلامي. ترجمة: محمود عمايرة. عمّان: وزارة الثقافة.
8. عباس، إحسان.(1993). فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين. ط1. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
9. عبد المهدي، عبدالجليل. (1981). المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي. عمّان: مكتبة الأقصى.
10. عبد المهدي، عبد الجليل. (1989). بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية (492 _ 648). عمّان: دار البشير.
11. عبد المهدي،عبد الجليل. (2009). الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين المملوكي والأيوبي. عمان: وزارة الثقافة.
12. العبدري البلنسي، محمد (ت720هـ). (2007). الرحلة المغربية. تقديم: أ.د. سعد بوفلاقة. منشورات بونة للبحوث والدراسات.
13. العسلي، كامل جميل. (1992). بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين. عمّان.
14. علي، علي السيد.(1991). القدس في العصر المملوكي. تونس: مؤسسة صامد.
15. غريب، جورج. (1991). أدب الرحلة: تاريخه وأعلامه. دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.
16. كراتشوفسكي. (1963). تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة: صلاح الدين هاشم.القاهرة: الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.
17. المقري التلمساني، أحمد بن أحمد. (1968). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر.
18. ابن نباتة، المصري. (1977). ديوان ابن نباتة المصري. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Al-Bashari, Abu Abdullah Muhammad bin Ahmed Al-Maqdisi. (1991). The best divisions in knowing the regions. 3rd ed. Cairo: Madbouly Library.
2. Ibn Battuta, Muhammad bin Abdullah bin Muhammad bin Ibrahim (d. 779 AH). Masterpiece of the Principal in the Oddities of the Cities and the Wonders of Travel / The Journey of Ibn Battuta. Beirut: House of Revival of Sciences.
.3. Ibn Jubayr, Abu al-Hasan Muhammad bin Ahmad (d. 614 AH). The Journey of Ibn Jubayr. Beirut: Al-Hilal Library House.
4. Al-Hamawi, Abu Bakr bin Muhammad bin Hajjah. (2005). Leaves fruits. Investigation: Abu Al-Fadl Ibrahim. 1 st ed. Modern library.
5. Hamida, Abdel Rahman Hamida. (1969). Flags of Arab geographers and excerpts from their effects. Damascus.
.6. Khosrow Alawi, Nasir. (1983). sleep travel Investigation: Dr. Yahya Khashab. 3d ed. Beirut: New Book House.
7. Strang, Lee. (1970). Palestine in the Islamic era. Translation: Mahmoud Amayreh. Amman: Ministry of Culture.
8. Abbas, Ihsan. (1993). Chapters on the cultural and urban life in Palestine. 1 st ed. Beirut: The Arab Foundation for Studies and Publishing.
9. Abdul Mahdi, Abdul Jalil. (1981). Schools in Jerusalem in the Ayyubid and Mamluk periods. Amman: Al-Aqsa Library.
10. Abdul Mahdi, Abdul Jalil. (1989). Bait Al-Maqdis in the Poetry of the Crusades (492-648). Amman: Al-Bashir House.
11. Abdul Mahdi, Abdul Jalil. (2009). Intellectual movement in the shadow of Al-Aqsa Mosque in the Mamluk and Ayyubid eras. Oman: Ministry of Culture.
12. Al-Abdari Al-Balani, Muhammad (d. 720 AH). (2007). Moroccan flight. Presented by: Prof. Saad Boufalaka. Pune Publications for Research and Studies.
13. Asali, Kamel Jamil. (1992). Bait Al-Maqdis in the travel books of Arabs and Muslims. Amman.
14. Ali, Ali Al-Sayed. (1991). Jerusalem in the Mamluk era. Tunisia: Samed Foundation.
15. Strange, George. (1991). Travel literature: its history and flags. Dar Al Thaqafa for printing, publishing and distribution.
16. Krachowski. (1963). History of Arab Geographical Literature. Translation: Salah El-Din Hashem. Cairo: Cultural Administration in the League of Arab States.
17. Al-Muqri Al-Tilmisani, Ahmed bin Ahmed. (1968). Bringing his good branch of Al-Andalus Alrtaib. Investigation: Ihsan Abbas. Export house.
18. Ibn Nabata, the Egyptian. (1977). The Diwan of Ibn Nabata Al-Masry. 1 st ed. Beirut: Arab Heritage Revival House.